مساهمة علماء بجاية في خدمة المذهب المالكي*

حاول ابن خلدون وهو يتكلم عن انتشار المذاهب الفقهية الأربعة على وجه الخصوص، أن يظهر أهم مراكز تلك المذاهب الفقهية في ذلك العصر الذي عاش فيه، ويمكن القول إن وضع تلك المذاهب لم يتحول عما كان عليه في تلك العصور إلا شيئا يسيرا؛ وابن خلدون عند كلامه عن مذهب مالك ورقعته الجغرافية يقول: "وأما مالك- رحمه الله- فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل، لما أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم، فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة"[1].

ذلكم هو السبب الأول في نظر ابن خلدون لانتشار مذهب مالك في المغرب والأندلس، ثم يشفعه بسبب آخر وهو كون البداوة "غالبة على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة"[2].

أما ابن حزم الأندلسي فيعزو سبب انتشار المذهب المالكي، وكذا الحنفي إلى قوة السلطان حينما يقول: "مذهبان انتشرا في مبدأ أمرهما بالرياسة والسلطان: الحنفي بالشرق والمالكي بالأندلس"[3]؛ وها هو الإمام سحنون- عندما تولى القضاء في أواخر حياته- يفرض المذهب المالكي ويجعله مصدرا للقضاء والفتوى، كما منع حلق المذاهب الأخرى من أن تعقد في جامع عقبة[4].

ولما أن انفصل المعز ابن باديس الصنهاجي عن الدولة الفاطمية بمصر، تمسك بمذهب أهل السنة والجماعة، وصنع مثل ما فعل قبله حماد وسحنون، وجمع الفقهاء حوله للمناظرة بين يديه وكان فيهم المالكية والحنفية، فسألهم عن موطن الإمام أبي حنيفة فقيل له الكوفة، قال: ومالك؟ قالوا: المدينة، فقال: عالم المدينة يكفينا، وأمر بإخراج كل من كان في ذلك المجلس على غير مذهب مالك، ومنعهم في تعدد المذاهب المذاهب خشية الفتنة وحسما للخلاف وذلك سنة 440هـ[5].

---

*أ. محمد نذير أوسالم- أستاذ مشارك- قسم العلوم الإسلامية ومدير الثقافي الإسلامي بوهران.

بمجموع تلك الأسباب رسخ مذهب مالك في المغرب بشتى أقطاره، الأقصى والأوسط والأدنى، ولا يزال الأمر على ذلك إلى يومنا هذا، ويعتبر ذلك عامل وحدة منعت هذه الأقطار من التشتت والتشرذم الذي ينشأ غالبا من اختلاف الفرق والمذاهب وتعددها.

اشتهرت الجزائر لعدة قرون مضت بحواضر علمية، كان لها الأثر الكبير في الحفاظ على الفقه المالكي الذي لم ينضب معينه إلى يوم الناس هذا، فمن تلك الحواضر، حاضرة تلمسان وقسنطينة وبجاية ومازونة وتوات وغيرها، وهي حواضر علمية متينة عمر بعضها لعدة قرون، وانجبت من العلماء الأفذاذ العدد الوفير ممن ذاع صيتهم، في شرق البلاد الإسلامية وغربها، ولا يزال أثرهم مرقوما في الكتب، وراسخا في الأذهان، وثابتا في القلوب دون أن تتوارى أو تتهاوى.

ومن بين تلك الحواضر التي أسهمت في بناء المذهب المالكي في هذه الديار، وتثبت أركانه، بجاية العلم والعلماء، هذه الحاضرة التي حافظ علماؤها على الفقه المالكي حفظا وتعليما وإفتاء واجتهادا وتأليفا، مما نجد مما يماثله في سائر الحواضر كتلمسان مثلا، فإن كانت هذه قد نالت قصب السبق في جلب مختصر[6] الخليل ثم انتشر في بلاد المغرب قاطبة، فإن بجاية هي الأخرى قد سبقت إلى جلب مختصر ابن الحاجب الفرعي ورعايته.

ومن فرط عناية الناس في بجاية العلم والأولياء– على عهد الحماديين مثلا– لم يُستثن من طلب العلم أحد، والأمر كما قال عنه العلامة عبد الرحمن الجيلالي– حفظه الله– بعد ما ذكر مجموع العلوم التي انتشرت في بجاية فقال: وأعجب من ذلك أن هناك من العوام وأشباههم من كان يحفظ عن ظهر قلب من أمهات كتب الفقه والحديث كصحيح البخاري وموطأ مالك ومدونة سحنون وتلقين عبد الوهاب البغدادي حفظا لا بأس به، وأشد من ذلك وأغرب هوما حكاه ياقوت الحموي في معجمه، حيث تعرض للتعريف ببلد ريغ أوريغة، وذكر أنها داخلة ضمن حدود مملكة بني حماد، قال: "قال أبو طاهر بن سكينة: سمعت أبا محمد عبد الله بن محمد بن يوسف الزناتي الضرير بالثغر يقول: حضرت هارون بن النضر الريغي بالريغ في قراءة كتاب البخاري والموطأ وغيرهما عليه، وكان يتكلم على معاني الحديث وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، ورأيته يقرأ كتاب التلقين لعبد الوهاب البغدادي في مذهب مالك من حفظه كما يقرأ الإنسان فاتحة الكتاب، ويحضر عنده دُوين مائة طالب لقراءة المدونة وغيرها من كتب المذهب عليه، فنشط العلماء لهذا التشجيع وأقبل العامة عليهم، فأكثروا من الكتابة في مختلف أنواع العلوم والفنون"[7].

وذكر المؤرخون أن ألفا من البنات كن يحفظن المدونة ذات يوم، ويستعرضنها كما نستعرض نحن القرآن عن ظهر قلب[8]. تلك الظاهرة العجيبة لحفظ مدونات الفقه المالكي تدل

الدلالة الواضحة على مدى تعظيم أهل بجاية لهذا المذهب، ناهيكم عن علمائها الأفذاذ الذين سأذكر بعض مشاهيرهم لاحقا.

مشاهير علماء بجاية: الذي سنلحظه في ذكر بعض أسماء هؤلاء العلماء، أنهم ينسبون تارة إلى مشدالة، وتارة إلى منقلات، وأخرى إلى زواوة، أو مليكش، وهذه أسماء لقبائل أو بطونها المشهورة في المنطقة التي تعرف عند عامة الناس بلاد الزواوة أو القبائل.

وهؤلاء البجائيون كان بعضهم شيوخا لكثير من كبار العلماء، كالسخاوي، وأبي أسحاق الشاطبي، والسيوطي، وابن خلدون؛ فصيتهم طبق الأفاق، واجتاز الشهرة المحلية، وكثير منهم من رحل إلى المشرق واستقر هناك، وذاك ما ستكشف عنه تراجمهم.

وكان أغلبهم من الفقهاء المالكية إلا من شذّ منهم، كابن معطي الزواوي الذي كان حنفي المذهب، وهو صاحب الألفية المشهورة في النحو وفيه يقول ابن مالك الأندلسي:

وتقتضي رضا بغير سخط ... فائقة ألفية ابن معطي

وهو بسبق حاز تفضيلا ... مستوجب ثنائي الجميلا

ومنهم من كان شافعيا كالمنقلاتي، والخروج عن مذهب مالك لا نكاد نجده إلا عند من استقر به المقام في المشرق.

وهم وإن اشتهروا في شتى فنون العلم العقلية والنقلية، وقد برع بعضهم في علم الحساب، والهندسة والفلك، والجغرافيا، والطب، واللغة، والأدب، والتاريخ، وغيرها من الفنون إلا أنهم عنوا بالفقه عناية خاصة، وأولوه اهتماما بالغا، وكان منهم المفتون والقضاة، هذا فضلا عن اشتغال بعضهم ببعض المهام السياسية.

1- أبو علي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدّالي ناصر الدين: العلامة الفذ الأوحد الحافظ الحفظ المجتهد كما يقول عنه أحمد بابا في كفاية المحتاج.

عاصر الإمام الغبريني الذي يقول عنه: كان فقيها محصلا متقنا، رحل للشرق ولقي أفاضل، وشارك في المنطق والعربية، وكل هذه الفنون تقرأ عليه، وله دروس حسنه في ساهما من الفنون، وكان من أهل الفتيا، شرح رسالة ابن أبي زيد، ولم يكملها[9].

قال التجيبي في رحلته: حاز السبق في علوم كثيرة وتبحر فيها وتكلم في أنواعها وناظر في جميعها، وتفنن في المعارف كلها.

وليس على الله بمستكثر... أن يجمع العالم في واحد

اطلع على مذاهب الأئمة، خصوصا مذهب مالك فإنه انفرد بمعرفته وقام بتقريبه ونصرته، يصور ويقرر، ويزيف ويرجح مع ثقوب ذهن وصحة استنباط وفهم.

رحل إلى الشرق صغيرا، ولقي بالعز بن عبد السلام وانتفع به كثيرا.

قال عنه الخطيب ابن مرزوق الجد: وصل شيخنا أبو علي درجة الاجتهاد، وكذلك قال عنه منصور الزواوي: كان شيخنا ناصر الدين إماما مجتهدا، علم الأعلام وقطب الفقهاء، توفي سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة[10].

تلك هي بعض الأوصاف الجميلة التي حلاه بها هؤلاء العلماء وهو جدير بها، وذكر ابن خلدون أنه أول من أدخل المختصر الفرعي لابن الحاجب إلى بجاية، ثم عمّ سائر أقطار المغرب.

2- الشيخ عيسى بن مسعود بن منصور بن يحي المنقلاتي أبو الروح: المولود (سنة 664هـ، والمتوفى بالقاهرة سنة 743هـ)، كانت له اليد في علم الفقه والأصول والعربية والفرائض، وكان يحكى عنه أنه حفظ مختصر ابن الحاجب في ثلاثة أشهر ونصف ثم عرضه، وحفظ موطأ مالك ثم عرضه، وكان إماما في الفقه وإليه انتهت رياسة الفتوى في مذهب مالك بالديار المصرية والشامية، ولي تدريس المالكية بمصر بزاوية المالكية، وترك ولاية الحكم وأقبل على الإشتغال بالتصنيف، فشرح صحيح مسلم في اثني عشر مجلدا وسماه إكمال الإكمال، وشرح مختصر ابن الحاجب في الفقه فوصل فيه إلى كتاب الصيد في سبع مجلدات، واختصر جامع ابن يونس شرح المدونة؛ ورد على ابن تيمية في مسألة الطلاق، وله مؤلفات في شتى الفنون[11].

3- أبوعلي ابن منصور بن علي بن عبد الله الزواوي البجائي التلمساني: ولد حوالي سنة 710هـ، كان والده أول أساتذته، الذي أرسله إلى شيخه الشيخ العلامة منصور بن أحمد المشدالي المتوفى سنة 731هـ، ولكنه لم يتم على يديه شرح ابن الحاجب[12]، ومن جلّة تلاميذ أبي علي العلامة ابن إسحاق الشاطبي الذي أخذ عنه مختصر منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل لابن الحاجب، من أوائل مبادئ اللغة إلى آخره بلفظه إلا يسيرا منه سمعه بقراءة غيره، وكل ذلك قراءة تفقه ونظر، وأجازه إجازة عامة بشرطها[13].

حل أبو علي الزواوي بالأندلس سنة 753هـ حيث أخذ عن ابن الفخار، وأقام بها إلى سنة 756هـ، وكان حيا بعد سنة 770هـ[14].

4- أحمد بن إدريس البجائي: يقول عنه أحمد بابا: الإمام العلامة المحقق، كبير علمائها في وقته، الورع الصالح البارع، وصفه ابن عرفة بالفقيه الصالح، وله تآليف على بيوع مختصر ابن

الحاجب، وله شرح عليه وعلى الزكوات، نقل عن القلشاني والمشدالي وابن زاغو فيه، وأخذ عنه يحي الرهوني وعبد الرحمن الوغليسي وابن خلدون[15]، الذي يقول عن شيخه أبي العباس أحمد بن العباس أحمد بن محمد الزواوي: أجازني الإجازة العامة، وأبو العباس ابن إدريس كبير العلماء ببجاية[16].

5- أبو الفضل محمد بن محمد بن أبي القاسم المشدالي: المولود سنة 821هـ ببجاية، نشأ في بيت علم وصلاح، حفظ القرآن بالروايات السبع عن والده، وكانت له حافظة قوية، ثم أكب على حفظ المتون ودواوين الأدب صغيرا، استظهر الشاطبية، والكافية، والشافية، والخلاصة، ولامية الأفعال، والجل من التسهيل وكلاهما لابن مالك، ومتن الخاجب الفرعي، والرسالة، ونحو الربع من مدونة سحنون، ومن ابن الحاجب الأصلي، وتلخيص المفتاح للسكاكي، وغير ذلك من متون العلم والأدب.

ثم اختلف إلى العلماء كأبي يعقوب يوسف الريغي، وأبي بكر التلمساني، وكانت له رحلة إلى تلمسان حيث أخذ عن أبن مرزوق الحفيد التفسير والحديث والأصلين، والمنطق والجدل والطب والهندسة والأدب والفلسفيات، كما أخذ عن غيره من علما تلمسان بلغوا عشرة، ما وجد عندهم من فن إلا وحصله، ثم عاد إلى بجاية، فبزّ الأقران بعلمه، وتصدّر للتدريس والإقراء.

يقول ابن مرزوق: ما عرفت العلم حتى قدم علي هذا الشاب- ويقصد أبا الفضل-، فقيل له: كيف؟ قال: لأني كنت أقول فيسلم كلامي، فلما جاء هذا شرع ينازعني؛ فشرعت التحرز وانفتحت لي أبواب من المعارف.

وكان ابن مرزوق وأبو الفضل بن الإمام، يأمران تلاميذهما بالقراءة عليه، فأسرع إليه غالبهم فانتفعوا، كان منهم أحمد بن زكري.

رحل إلى المشرق وزار الشام، وبلاد الحجاز، ثم استقر به المقام بمصر، حيث تعرف إليه الإمام السخاوي الذي عليه، وذكر من ذكائه ما يتعجب منه، وما تحلى به من الأخلاق الحميدة، وصدق اللهجة وفصاحة المنطق، وما بلغه من الشأو في فقه مالك، ومدى ما امتاز به من حسن التدريس، حتى قال عنه: إنه ما رأى مثله ولا رأى هو مثل نفسه، وذكر من موسوعيته ما يقضي منه العجب.

توفي بالشام غريبا فريدا سنة 864هـ[17].

6- أبو إسحاق إبراهيم بن فائد بن موسى الزواوي: ولد بجبل جرجرة سنة 796هـ، والتنقل إلى بجاية حيث حفظ القرآن الكريم، واشتغل بالفقه على يد ابن عثمان المنقلاتي، ثم رحل إلى تونس، وقسنطينة لطلب العلم، وممن أخذ عنهم ابن مرزوق لما قدم إلى قسنطينة، واجتهد كل العلوم المتداولة أنذاك، وهو ما انفك يعاني العلم تعلما وتعليما، حتى برع في جميع الفنون ولا سيما الفقه، وألف كتابا في التفسير، وشرح

مختصر خليل في عدة مجلدات سماه تسهيل السبيل، وشرح تلخيص المفتاح في مجلد، وألفية ابن مالك في مجلد، توفي رحمه الله في 857هـ[18].

مستخلص تلك التراجم: اكتفيت بذكر هؤلاء ولم أعرج على سواهم من العلماء– وهم كثر–، لأن القصد ليس الترجمة لعلماء بجاية، وإنما أردت ذكر أعيانهم، وركزت على من اشتهر أكثر منهم، سواء داخل الجزائر أوخارجها، وما ذلك إلا لبيان مدى اهتمام هؤلاء البجائيين بالمذهب، وما أحاطوه به من العناية التامة، والرعاية الفائقة، تعلما وتعليما، وشرحا واختصار وتقريرا لما يتداول بين الناس من كتب الذهب.

يتبين من خلال تلك التراجم، بعض ما ألّفوه من كتب في مذهب مالك، وما خلّفوه من تلاميذ حملوا علمهم لينشروه بين الناس، وهم بفعلهم ذاك أسدوا لمذهب مالك خدمة تبقى في جبين الدهر تشهد بإخلاصهم لإمام دار الهجرة، وتلك الأعمال لم تنقطع ثمرتها لقرون عدة، وإلى يوم الناس هذا، إذ نجد في زوايا ومعاهد البلاد من يعنى بمذهب مالك، وإلى عهد قريب إبان الفترة الاستعمارية، كان الطلبة المجدون يحفظون مختصر خليل عن ظهر قلب.

ونظرة أخرى في تلك التراجم، نلحظ مدى اهتمام البجائيين بمختصر ابن الحاجب، لأن صاحبها بناه على تهذيب المدونة للبراذعي، وها هو بذلك لا يقطع صلتهم بمدونة سحنون التي كانوا يستظهرونها كما يستظهرون الموطأ، وكان أحد علمائها يقول: "من حصل كتاب ابن الحاجب هذا، وفهمه فإنه يقرئ به المدونة، وكذلك عادتي أنا فإني أقرئ به المدونة"[19].

وبقي حال مختصر ابن الحاجب كذلك، إلى أن توارى بعد جلب مختصر خليل إلى بلاد المغرب عن طريق علماء تلمسان، كما أشرت إلى ذلك من قبل.

ونلحظ أيضا من خلال تلك التراجم موسوعية أهلها، مما يؤهل كثيرا منهم إلى درجة الاجتهاد، وآنس بعضهم من نفسه بلوغ هذه الدرجة، وقد نسب بعض العلماء إلى بعضهم درجة الاجتهاد كالذي رأيناه من شأن منصور بن أحمد، ولكن دون أن يتنصلوا من الانتساب إلى المذهب، وذلك أمر معلوم عن أهل هذا الشأن من الفقهاء.

وفي الأخير يمكننا القول بأن هؤلاء العلماء، كانت لهم اليد الطولى في الحفاظ على مذهب مالك في هذه الديار المغربية، وقد شاركوا جهود إخوانهم من الفقهاء في سائرا لأقطار، والحواضر العلمية المبثوثة هنا وهناك.

الهوامش:

1-ابن خلدون، المقدمة ص 356.

2-الرجع نفسه، ص 356.

3-انظر وفيات الأعيان، ج 6، ص 144 بتصرف.

4-انظر طبقات الخشني ص 236، والبيان المغرب لابن عذاري المراكشي ج1 ص109.

5-عبد الرحمن الجيلالي، مجلة الموافقات ص 228، العدد الثالث 1994

6-شرحه ابن مرزوق التلمساني، يقول عنه الحطاب في مواهبه" لم أر أحسن من شرحه"، ج1 ص 3.

7-تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي، ج1 ص 292 ــ 293.

8-أيت بلقاسم، مجلة ملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر 1985، الجزء الأول ص 31.

9-الغبريني، عنوان الدراية ص 283 ؛التنبكتي، كفاية المحتاج ص 485.

10-المرجع نفسه، ص 486 ــ 487.

11-ابن فرحون، الديباج المذهب ص283.

12-تعريف الخلف، القسم الثاني ص32 ــ 33.

13-أبو إسحاق الشاطبي، فتاوى الشاطبي، مقدمة المحقق أبوالأجفان ص37.

14-كفاية المحتاج، ص489.

15-المرجع نفسه ص45، الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، القسم الثاني ص34.

16-أيت بلقاسم، مجلة ملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر 1985، الجزء الأول ص31.

17-انظر تاريخ الجزائر العام، لعبد الرحمن الجيلالي، ج2 من ص 256 إلى ص 271.

18-المرع نفسه، ج 2 ص 137 ــ 138. 19-ابن الحاجب، جمع الأمهات، ت الأخضري لخضر، ص 7.

الإعلام والاتصال